المنهج النقدي في مقارنة الأديان بين النظرية والتطبيق

(كتاب الإعلام للإمام القرطبي نموذجاً)

لأبي عائش محمد سميح فاضل فضل

المقدمة

الْحَمد لله الَّذِي من علينا بتوحيده وَجَعَلنَا من أفضل عبيده الَّذِي جنبنا الْأَهْوَاء المذلة والآراء المضلة أرانا الْحق إِذْ هدَانَا لبرهانه وَدَلِيله وَأظْهر لنا الْبَاطِل وتفضل علينا بالعدول عَن سَبيله، والصَّلَاةُ والسلامُ على أنبيائه وَرُسُله أَئِمَّة الْهدى ومصابيح الدجى لا سيما الْمَبْعُوث إِلَى الثقلَيْن ،الْمفضل على الْعَالمين الْمُؤَيد بِالْآيَاتِ الصَّادعة والبراهين القاطعة ل صلى الله عَلَيْهِ وعَلى آله الطيبين وعَلى جَمِيع النَّبِيين وَالْمُرْسلِينَ ، أما بعد:

فقد تنوعت المناهج العلمية التي أرساها علماء المسلمين في مجالات البحث العلمي والفكري النظري والتطبيقي ، وكان من أبرز هذه المناهج وأكثرها استخداماً في حقل مقارنة الأديان بوجه عام ، ونقد الكتاب المقدس عند أهل الكتاب بوجه خاص المنهج النقدي ، فأردت أن أجمع في دراسة هذا المنهج بين النظرية والتطبيق .

<u>أسباب اختيار الموضوع:</u>

• الوقوف على قواعد وأسس المنهج النقدي عند علماء المسلمين كأحد المناهج في دراسة الأديان ليستخدمه الباحث بشكل صحيح إذا ما أراد ذلك في حقل الدراسة.

• عدم وجود دراسة تناولت منهج دراسة الأديان عند الإمام القرطبي حيث إن الذين تناولوا الإمام القرطبي تناولوا عقيدته ، وكذلك تناولوه كمفسِّر ، وصاحب الإعلام ليس هو القرطبي المفسر ، وإنما هو شيخه كما سيأتي .

•أن من تناول كتاب الإعلام بالدراسة تناوله من جهة أسلوب دعوة النصارى كما في رسالة الدكتوراه للطالب بيسان صالح حسن في رسالته للدكتوراه عن أسلوب الإمامين القرطبي والقرافي في دعوة النصارى للإسلام ،من جامعة الإمام**!**

•ما سيتضح من تحقيق القرطبي لقواعد المنهج النقدي التي اشترك فيها علماء المسلمين عامة وتطبيقه لها مما سيكون له أكبر الأثر ضبط هذا المنهج عند من أراد استخدامه بعده.

<u>خطة البحث</u>

وقد اشتملت خطة البحث على تمهيد ، وفصلين ، وخاتمة:

<u>▪ التمهيد في بيان:</u>

• المراد بالمنهج النقدي لغة واصطلاحا، وذلك بتعريفه باعتبار مفرديه ، ثم باعتباره لقباً لإحدى مناهج البحث العلمي، وكذلك مجالات استخدام المنهج النقدي.

• قواعد المنهج النقدي وخصائصه .

•أشهر من طبَّقه مع عرض موجز لقواعد منهجه النقدي.

<u>▪الفصل الأول:</u>

وفيه بيان الجانب النظري عند الإمام القرطبي كنموذج للدراسة من خلال كتابه الإعلام ، وقد سبق ذلك ترجمة موجزة للقرطبي ، وتعريف بما تضمنه كتابه ، مع الكلام حول نسبة الكتاب إليه ، ثم القواعد النظرية للمنهج النقدي عند القرطبي وسمات منهجه.

▪**الفصل الثاني** :
دراسة تطبيقية للقواعد النظرية من خلال كتاب الإعلام
▪خاتمة في بيان ما توصل إليه الباحث من نتائج ، ثم ذِكر المصادر والمراجع.

التمهيد

المطلب الأول: في بيان حد المنهج النقدي وقواعده:

قبل الشروع في بيان الحد الاصطلاحي للمنهج النقدي باعتباره لقباً لإحدى مناهج الاستدلال ،ينبغي أولاً تعريفه باعتبار مفرديه :

أولا: المنهج:

• فالمنهج لغة :

مصدر من نَهَجَ يَنْهجُ مَنْهَجًا ومنهاجًا، يقول ابن منظور: نَهْجُ: طريق نَهْجٌ بَيِّنُ، واضح.... والجمع: نَهجات ونُهُوج، والمنهاج كالمنهج،[1] وفي التنزيل: (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً ومِنْهَاجًا)، واستنهج الطريق، وقد ورد عن أبن عباس أنه قال: "لم يمت رسول الله – ﷺ – حتى تركَكم على طريقة ناهجة".

يقول أستاذنا الدكتور عبد الراضي عبد المحسن:

"وهذه الاستدلالات تشير بمجملها إلى أن كلمة المنهج ومشتقاتها تطلق في اللغة على الطريق الواضح الظاهر المستقيم -، وقد أكدت السنة النبوية هذا الاستعمال اللغوي لكلمة المنهج بهذا المعنى وذلك في قوله – ﷺ" – ثم تكون خلافة على منهاج النبوة" أ. ه[2].

•وأما اصطلاحًا:

فقد بيَّن أستاذنا أوجه استخدام هذه الكلمة سواء كان استخدامًا عامًا يشمل النشاط المنظم لحياة الإنسان كما في "المنهاج في ترتيب الحِجاج" لأبي الوليد الباجي، "ومنهاج الاستقامة" لابن تيمية، أو بمعنى الطريق في مجال الفرق والمذاهب والتيارات الإسلامية كما في "منهاج السنة النبوية" لابن تيمية، وكذلك استخدامها على أساس نمط خاص متفق عليه درج عليه العلماء والباحثون وطلاب البحث العلمي ومعناه:

"الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة بواسطة طائفة من القواعد العامة والخاصة التي تهيمن على سير العقل وتوجه وتحدد عملياته إلى أن يصل إلى الحقيقة إن كنَّا بها جاهلين أو إثبات تلك الحقيقة وتثبيتها والاستدلال عليها إن كنّا بها عارفين"[3].

وهذا التعريف تكمن أهميته بالربط بين الحقيقة والمنهج، فغاية البحث العلمي هي الوصول إلى الحقيقة ولن يتم ذلك إلا بالتزام تلك القواعد طوال مراحل البحث، وبالتالي تنشأ حزمة من الخصائص والسمات التي تميز هذا المنهج أو تعيبه نستطيع من خلالها أن نحكم على محل الدراسة بالسلب أو الإيجاب.

ثانيا: النقد لغة واصطلاحاً:

---

[1] (١) اللسان (٧١٤/٨)، ط. دار الحديث.

(٢) أبجديات المنطق ومناهج البحث (١٢٢) ط. دار الثقافة العربية، ٢٠١٤م ، عبد الراضي محمد عبد المحسن، والحديث صححه الألباني.

(٣) المصدر السابق (١٢٤).

•النقد في اللغة مداره على إبراز الشيء وكشفه. قال ابن فارس –رحمه الله-: " النُّونُ وَالْقَافُ وَالدَّالُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِبْرَازِ شَيْءٍ وَبُرُوزِهِ. وَمِنَ الْبَابِ: نَقْدُ الدِّرْهَمِ، وَذَلِكَ أَنْ يُكْشَفَ عَنْ حَالِهِ فِي جَوْدَتِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. وَدِرْهَمٌ نَقْدٌ: وَازِنٌ جَيِّدٌ، كَأَنَّهُ قَدْ كُشِفَ عَنْ حَالِهِ فَعُلِمَ." (١) ا .هـ

والنقد كذلك كشف العُيوب، قال أبو الدرداء: "إن نقدت الناس نقدوك"؛ أي: عبتهم واغتبتهم، من قولك: نقدت الجوزة أنقدها، ونقد الدرهم، ونقد له الدرهم؛ أي: أعطاه إيَّاه وأما في الاصطلاح ، فليس بمبعدة عن معناه اللغوي، إذ هو المنهج الذي يبتغي كشف حقيقة الظاهرة موضوع البحث ونقد جوانبها المختلفة نقداً موضوعياً يمكن بواسطته استبعاد الزائف وغير الأصيل من تلك الجوانب ، والإبقاء على الصحيح منها ، والتسليم به (٢)

والمنهج النقدي منهج صعب على من ليس لديه فهمٌ عالٍ، وبصيرة قادرة على ادراك مواطن الخلل في القضايا المطروحة ، وهذا يتطلب معرفة تامة بالمعايير التي يفرق من خلالها بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد، ولأهمية هذا المنهج في الاطلاع على مواطن الخلل في القضايا المطروحة استُخدِم في كثير من مجالات البحث ، ومن هذه المجالات مقارنة الأديان للوقوف على ما هو مُوحى من قِبل الله تعالى لم تطله يدُ التحريف ،ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وما هو من وضع البشر مما مسَّته يد التحريف فزادت فيه ونقصت .

♦استخدامات المنهج النقدي

للمنهج النقدي استخدامات عديدة في العلوم الشرعية والأدبية ، والذي يتعلق بمجال بحثنا ، أي دراسة الأديان أنَّ علماءنا جعلوا نقدهم للأديان المخالفة في شقين أساسيين هما:

•نقد العقائد بوجه عام لتمييز صحيحها من سقيمها .
•نقد الكتب المقدسة في اليهودية والنصرانية بوجه خاص.

♦ قواعد المنهج النقدي

يرتكز المنهج النقدي لدى علماء المسلمين على مجموعة من القواعد والأصول وُلدت على يد علماء السُّنة النبوية بدءً من التعامل مع حديث رسول الله –ﷺ- ، حيث وضعوا مجموعة من القواعد التي تضبط مقياس قبول الحديث وردِّه ، فوضعوا علم الجرح والتعديل ، ووضعوا شروطاً لابد من توفرها في الراوي لقبول روايته كالعقل والإسلام والعدالة ، كما أولوا اهتماما كبيرا بدراسة المتن كذلك ، فجاء نقدهم شاملا للسند "النقد الخارجي"، والمتن كذلك "النقد الباطني الداخلي"[٣]

---

(٢)مقاييس اللغة لابن فارس . (٤٦٧/٥) ط. دار الفكر. بيروت

(٣) أبجديات المنطق ومناهج البحث (١٣٤) مرجع سابق

٣ –في مقدمة صحيح مسلم عَنِ ابْنِ سِيرِينَ، قَالَ: " لَمْ يَكُونُوا يَسْأَلُونَ عَنِ الْإِسْنَادِ، فَلَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ، قَالُوا: سَمُّوا لَنَا رِجَالَكُمْ، فَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ فَيُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ، وَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ الْبِدَعِ فَلَا يُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ "ص(١٥/١) ط. دار إحياء التراث .بيروت . انظر :: مناهج دراسة الأديان بين المتكلمين والفلاسفة المسلمين في القرنين الرابع والخامس الهجريين . حمدي عبد الله الشرقاوي. رسالة دكتوراه . دار العلوم .القاهرة.١٤٢٠هـ/١٩٩٩م

ولقد صار هذا المنهج هو المنهج المعتمد كذلك في دراسة الأديان عند علمائنا حيث إن مفرداته وقواعده لم تختلف من واحد لآخر بوجه عام ، وذلك يرجع إلى أن أصول هذا المنهج كانت واضحة لديهم ، وقد قامت قواعده كذلك على:

• النقد الخارجي و الذي يدور حول مصدر النص ، وظروف الكتابة والحفظ وكيفية وصوله إلينا.

• النقد الداخلي والذي يمتحن مضمون النص ويقف على مدى خلوه من التناقض الذاتي ، ومخالفة الوقائع التاريخية والحقائق العلمية.

وقد تجسد الجانب التطبيقي لهذا المنهج عند علماء القبلة ، وإن اختلفت مذاهبهم ما بين سلفي ، وأشعري ، ومعتزلي ، فطبَّقه كل من شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم ، والقاضي الباقلاني ، والقاضي عبد الجبار ، والإمام الجويني ، وأبو الحسن العامري ، والبيروني ، وغير هؤلاء.

وإذا كانت هذه القواعد هي القاسم المشترك بين أئمتنا ، فهناك قواعد منهجية تفرد كل عالم منهم بها ، سواء نصَّ على ذلك ، أو أُستنبطت من دراسة المنهج الذي طبقه في دراسته للأديان كما سيتضح في دراستنا حول الإمام القرطبي رحمه الله.

المطلب الثاني : أبرز المؤلفات التي طبَّقت هذا المنهج :

♦"الفَصلُ في الملل والنحل "([1])للإمام ابن حزم الظاهري (ت ٤٥٦)

وقد قام المنهج النقدي عنده على دعامتين أساسيتين هما:

• النقد الخارجي المتمثل في موقف بني إسرائيل –عبر تاريخهم كله- من التوراة ، ومدى عنايتهم بها، ومن كان يقوم بحفظها من بينهم من الملوك والأفراد ، وهل نقلت من جيل إلى جيل نقلاً متواتراً أم لا؟[2] وقد خلص ابن حزم إلى أنَّ الظروف التي مرَّت بها التوراة كانت مناسبة جداً ، بل كانت أنسب ظروف يمكن للتوراة أن تُحرَّف وتبدل فيه.

•النقد الداخلي، أي نقد نص التوراة ذاته ، وفحص محتواه ليكشف مواطن التحريف والكذب فيه ، مستعينا في ذلك بنصوص التوراة حتى لا يكون الأمر مجرد ادعاء ، وفي هذا يقول ابن حزم رحمه الله:

"وليعلم كل من قَرَأَ كتَابنَا هَذَا أننا لم نخرج من الْكتب الْمَذْكُورَة شَيْئا يُمكن أَن يخرج على وَجه مَا وَإِن دق وَبعد فالاعتراض بِمثل هَذَا لَا معنى لَهُ وَكَذَلِكَ أَيْضا لم نخرج مِنْهُ كلَاما لَا يفهم وَإِن كَانَ ذَلِك مَوْجُودا فِيهَا لِأَن للقائل أَن يَقُول قد أصَاب الله مَا أَرَادَ وَإِنَّمَا أخرجنَا مَا لَا حِيلَة فِيهِ وَلَا وَجه أصلا إِلَّا الدعاوي الكاذبة الَّتِي لَا دَلِيل عَلَيْهَا أصلا لَا مُحْتملا وَلَا خفِيا"([3])

وقد انتهى الإمام كذلك إلى أن الأسفار الخمسة المسماة بالتوراة والرائجة بين اليهود والنصارى ليست هي التي أوحى الله بها إلى موسى الكليم –عليه السلام-، لما فيها من أمور تجعلنا نقطع باستحالة نسبتها إلى موسى عليه السلام ، وكذلك لكثرة ما فيها من الأغاليط والأكاذيب ، والتناقضات التي لا يمكن دفعها ولا تأويلها![4]

♦"الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح" لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ)

وهذا الكتاب لا نظير له بين كتب المسلمين في توظيف المنهج النقدي في الردِّ على النصارى ، لا في مضمونه ولا حجمه.

وقد أرسى ابن تيمية رحمه الله أصولا لمنهجه النقدي لأهل الكتاب عامة والنصارى خاصة ، وانحصرت هذه الأصول في:

•النقل •العقل

•الإسلام هو الدين الموثق لغيره من الأديان

•تأسيس اليقين في المعرفة كمقدمة ضرورية لبناء اليقين في الاعتقاد.

•تناول النصرانية في مقامين :

أحدهما: تبديل دين المسيح.

---

١ –رجَّح أستاذنا الدكتور عبد الراضي عبد المحسن تسمية الكتاب "الفَصل" بالفتح لا بالكسر ، لأن ذلك ما يتوافق مع مضمون الكتاب ومنهجه . انظر : مناهج البحث (١٣٥) مرجع سابق

٢ – الفصل في الملل والنحل (٣٥٥/١) ابن حزم : ط. دار الحديث. القاهرة ط. الأولى ١٤١٣هـ

٣ – المرجع السابق (٢٥٦/١)

٤ – للوقوف على كثير من الأمثلة التي ذكرها ابن حزم أنظر: منهج نقد النص بين ابن حزم واسبينوزا للأستاذ الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي .

والآخر: تكذيب محمد ﷺ.([1])

وقد بيَّن ابن تيمية وجه الحق في كل مسألة عرضها بأوضح برهان ، متحرِّياً في كل ذلك إصابة الحق والتجرد له ، وفي هذا يقول-رحمه الله- بعد ذِكره لحديث النبي-صلى الله عليه

"القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة، رجلٌ عَلِم الحق وقضى به فهو في الجنة ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار" ([2]).

" فإذا كان من يقضي بين الناس في الأقوال والدماء والأعراض – إذا لم يكن عالمًا عادلاً كان في النار، فكيف بمن يحكم في الملل والأديان، وأصول الإيمان، والمعارف الإلهية والمعالم الكلية بلا علم، ولا عدل؟" أ.هـ([3]).

♦<u>"هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى" للإمام شمس الدِّين ابن القيِّم (ت٧٥١هـ)</u>

انطلق ابن القيم كشيخه ابن تيمية يرد على الاتهامات والفِرى التي أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلمين ، ولمَّا لم يستطيعوا الجواب الذي يرفع الداء الذي فيه ، انبرى ابن القيم للرد الكافي الشافي المبني على منهج نقدي رصين قام على :

•التكامل بين العقل والنقل، فيأتي بنقولات من الكتاب والسنة والسيرة تُفحم الخصم ، ويستند إلى ما في دين النصارى من معضلات لا يقبلها العقل السوي، وما أكثرها! وفي هذا ينقل قول بعض ملوك الهند كالمقر به :

" أَمَّا النَّصَارَى فَإِنْ كَانَ أَعْدَاؤُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ يُجَاهِدُونَهُمْ بِالشَّرْعِ فَأَنَا أَرَى جِهَادَهُمْ بِالْعَقْلِ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَرَى قِتَالَ أَحَدٍ، لَكِنِّي أَسْتَثْنِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مِنْ جَمِيعِ الْعَالَمِ، لِأَنَّهُمْ قَصَدُوا مُضَادَّةَ الْعَقْلِ وَنَاصَبُوهُ الْعَدَاوَةَ وَشَذُّوا عَنْ جَمِيعِ مَصَالِحِ الْعَالَمِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ الْوَاضِحَةِ، وَاعْتَقَدُوا كُلَّ مُسْتَحِيلٍ مُمْكِنًا، وَبَنَوْا مِنْ ذَلِكَ شَرْعًا لَا يُؤَدِّي إِلَى صَلَاحِ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَالَمِ، وَلَكِنَّهُ يُصَيِّرُ الْعَاقِلَ إِذَا شَرَعَ بِهِ أَخْرَقَ، وَالرَّشِيدَ سَفِيهًا، وَالْحَسَنَ قَبِيحًا، وَالْقَبِيحَ حَسَنًا، لِأَنَّ مَنْ كَانَ فِي أَصْلِ عَقِيدَتِهِ الَّتِي جَرَى نَشْؤُهُ عَلَيْهَا الْإِسَاءَةُ إِلَى الْخَلَّاقِ، وَالنَّيْلُ مِنْهُ، وَسَبُّهُ أَقْبَحَ مَسَبَّةٍ، وَوَصْفُهُ بِمَا

---

١ – منهج أهل السُّنة والجماعة في الردّ على النصارى "دراسة علمية من خلال جهود الإمام ابن تيمية " رسالة ماجستير لعبد الراضي محمد عبد المحسن ، ص(١١) ط. دار الفاروق الحديثة . القاهرة الطبعة الثانية ١٤١٥هـ

– قواعد ابن تيمية في الرد على المخالفين: رسالة ماجستير لحمد بن حميد القريقري ،ص١٣٢ط. دار الفضيلة. الرياض ١٤٣٢

(٢) رواه أبو داود في سننه من حديث ابن بريده عن أبيه، كتاب الأقضية، باب في القاضي يخطئ (٣٥٧٣)، ورواه الترمذي في الأحكام بلفظ مقارب، وأخرجه ابن ماجه في الأحكام، باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق (٢٣١٥)، وأخرجه الحاكم وصحح إسناده، وكذلك الحافظ في تلخيص الحبير (٢٠٨).

(٣) ، الجواب الصحيح (١٠٧/١). ابن تيمية ط. دار العاصمة.

يُغَيِّرُ صِفَاتِهِ الْحُسْنَى، وَأَخْلَقُ بِهِ أَنْ يَسْتَهِلَّ الْإِسَاءَةَ إِلَى مَخْلُوقٍ، وَأَنْ يَصِفَهُ بِمَا يُغَيِّرُ صِفَاتِهِ الْجَمِيلَةَ."[1] ا.هـ

•الاستدلال على الخصم من كلامه ما ينقض حججه الواهية وشبهاته العليلة.

وهو في منهجه النقدي يوظف أكثر من منهج :

فتراه يستخدم المنهج الوصفي المستند إلى التحليل باستقراء الجزئيات وتصنيفها مع التوثيق والتأكد من صحة نسبة الأقوال ومناقشتها [2].

وتارة يستخدم منهج الاستنباط القائم على استخدام القواعد الأصولية واللغوية للانطلاق من الجزئيات إلى الحقائق الكلية .

ولا يخلو نقده من الاعتماد على المنهج التاريخي الاستقرائي الجامع للآراء والأقوال المقارن بينها ، حتى يكون منهجه شاملا متكاملا يسد على خصمة كل طريق إلا طريق الإذعان للحق الذي لا تشوبه شائبة.([3])

---

١ – هداية الحيارى ص(٥١) ط. عالم الفوائد . مكة المكرمة .تحقيق عثمان جمعة ضميرية.

٢ – المرجع السابق ص(٧)

٣ – المرجع السابق ص (٣٢)

الفصل الأول

♦"الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام " للإمام أبي عبد الله القرطبي "٥٧٨-٦٥٦هـ" (دراسة نظرية)

وسيكون محل البحث إن شاء الله تعالى من خلال النقاط التالية:

•ترجمة الإمام القرطبي صاحب الإعلام:

هو الإمام المحدث أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصاري، المالكي، الفقيه، المحدث. قال ابن فرحون :يلقب ب(ضياء الدين)،ويُكنى "بابن المزين"، بالزاي المعجمة، بعدها ياء مثناة من تحت ونون.([1])

ولد بقرطبة من بلاد الأندلس وحفظ القرآن وتعلم الفقه والنحو والبلاغة ، حتى صار من الأئمة المشهورين ،والعلماء المعروفين جامعًا لعلوم كثيرة منها علم الحديث والفقه والعربية والبلاغة كما يظهر جليا في مصنفه "الإعلام"، وله تلاميذ كُثر منهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي المفسر المتوفى سنة٦٧١هـ، صاحب كتاب" الجامع لأحكام القرآن" ، وقد نُسِب كتاب الإعلام إليه واشتهرت هذه النسبة ، وهذا خطأ لا شكَّ فيه كما سيأتي في تحقيق نسبة الكتاب .

صنَّف أبو العباس ـ رحمه الله تعالى ـ "المُفهِم لما أَشكل من تلخيص كتاب مسلم"، وهو من أجل الكتب، وقد اعتمد الإمام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ عليه في كثير من المواضيع في شرح مسلم ، وله تصانيف أُخر منها كتابنا هذا "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام"

كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة، أوقاته معمورة ما بين توجّه وعبادة وتصنيف.

وتوفى رحمه الله بالإسكندرية في ذي القعدة سنة ست وخمسين وستمائة من الهجرة

•التعريف بكتاب الإعلام :

الاسم الكامل لهذا الكتاب هو " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ، وإظهار محاسن الإسلام، وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام "

وقد ألَّف القرطبي هذا الكتاب ردَّاً على كتاب "تثليث الوحدانية"[2] الذي بعثه بعص نصارى طُليطلة إلى قرطبة ليفتن المسلمين عن دينهم ، فجاء رد الإمام مستوعبا كل ما جاء في هذا الكتاب .

وقد اشتمل كتاب الإعلام على أربعة أجزاء تضمنت أربعة أبواب كالتالي:

•الباب الأول في بيان مذاهب النصارى في الأقانيم الثلاثة ، وإبطال قولهم فيها.

•الباب الثاني في بيان مذاهب النصارى في الحلول والاتحاد وإبطال قولهم فيها .

---

[1])-الديباج المُذَهَّب (٢٤٠/١) لابن فرحون. تحقيق وتعليق: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور الناشر: دار التراث للطبع والنشر، القاهرة

[2])- الإعلام (٤٣) ط. دار التراث العربي .تحقيق د. أحمد حجازي السقا، بدون تاريخ.

•الباب الثالث في النبوات وذكر كلامهم فيها ، وذِكر أربعة أنواع لإثبات نبوة نبينا محمد ﷺ .

•الباب الرابع في بيان أن النصارى متحكمون في دينهم ، وأنهم لا مستند لهم إلا محض الهوى.

•تحقيق نسبة الكتاب للإمام القرطبي

كتاب (الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، وإظهار محاسن دين الإسلام، وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام) من الكتب المختلف في نسبتها ، وأكثر من صنّف أو حقق في مقارنة الأديان على نسبة الكتاب للقرطبي المفسر أبي عبد الله محمد بن أحمد بن فرح الأنصاري القرطبي ، **وممن نسبه له :**

• كارل بروكلمان المستشرق الألماني كما نقل عنه الدكتور أحمد حجازي السقا محقق الكتاب

• الدكتور القصبي زلط في رسالته للدكتوراة عن منهج القرطبي في تفسيره من جامعة الأزهر.

• الطالب بيسان صالح حسن في رسالته للدكتوراه عن أسلوب الإمامين القرطبي والقرافي في دعوة النصارى للإسلام ،من جامعة الإمام!

والصحيح أنه لشيخه أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي صاحب المفهم في شرح مسلم ، حيث إنه أشار إليه في مواضع كثيرة بقوله :" كما ذكرنا ذلك في كتاب (الإعلام)" ثم قال في الموضع الأخير في الكلام عن معجزة انشقاق القمر في شرحه للصحيح :

" كما قد نقلنا ذلك في كتابنا المسمى بكتاب الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإثبات نبوةِ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم " (١)

فصرَّح باسم الكتاب كاملا بما لا يدع مجالاً للشك في نسبة الكتاب إليه.

ومما يعضد ما سبق أننا ما وجدنا أحداً ترجم للقرطبي المفسر رحمه الله فذكر ضمن مؤلفاته المطبوع منها والمخطوط كتاب "الإعلام"، ولو كان من مؤلفاته لذكر لسببين:

• مكانة الكتاب العظيمة في حقل الرد على الملل المخالفة لدين الإسلام.

• حجم الكتاب الكبير ، فليس رسالة صغيرة لتحرير مسألة نحوية أو فقهية ، بل هو كتاب ضخم ضم أربعة أبواب متكاملة الأركان .

أضف إلى ما سبق أن أسلوب الكتاب البلاغي أسلوب عالم بلغ المنتهى في علوم العربية ، وفن الجدال للمخالفين بالحجج القاطعة ، وليس أسلوب طالب عِلم مبتدئ ، ومن هنا يتضح لنا عدم صحة نسبته للقرطبي المفسر ، وذلك أن الكتاب صُنِّف قبل سنة ٦٣٣هـ قبل سقوط قرطبة بأيدي النصارى عام ٦٣٣هـ/١٢٣٦م (٩)، فالمؤلف يقول عن كتاب النصراني إنه " بعث به من طليطلة أعادها الله إلى مدينة قرطبة حرسها الله "[٢] فعبارة " حرسها الله " تدل على أن قرطبة ما زالت في حوزة المسلمين بعكس قوله عن طليطلة " أعادها الله " التي تعنى أنها قد خرجت من سلطان المسلمين .، والقرطبي المفسر في ذلك الوقت لم يزل طالبا للعلم عند مشايخة إذ إنه ولد بين عام ٦٠٠-٦١٠ هـ.

---

[١])- المُفهم شرح صحيح مسلم (٤٠٤/٧) ط. دار ابن كثير. دمشق

[٢])-الإعلام (٤٣) تحقيق أحمد حجازي السقا .دار التراث العربي

قواعد المنهج عند الإمام القرطبي:

إن كان نجاح أي باحث يكمن في دقة اختياره للمنهج المناسب لدراسة الظاهرة ، ثم قدرته على بيان عناصر منهجه والسير عليها، فإن المستقرئ لدراسة القرطبي الإمام يجد أنه قد وضع مجموعة من الأسس والقواعد[1] التي بنى عليها دراسته، وهي:

•الاستدلال بالمنقول :

ويطلق عليه الدليل النقلي ، والمراد به ما جاء في كتاب الله وسنة النبي - صلى الله عليه وسلم -نصا لا تأويلا ، إذ إنه خبر معصوم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .ولقد أكثر القرطبي من الاستدلال بنصوص الوحيين وأولى ذلك عناية خاصة في سائر أبواب الكتاب ، وفي هذا يقول مبيناً منهجه في الرد:" **الاستدلال على نبوته صلى الله عَلَيْهِ وَسلم بِالْكتاب الْعَزِيز الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِل من بَين يَدَيْهِ وَلَا من خَلفه تَنْزِيل من حَكِيم حميد وَلَقَد كَانَ يَنْبَغِي أَن نقدم الاستدلال بِهَذَا النَّوْع لكَونه أعظم المعجزات وأوضحها وأشهرها لَكِن قدمنَا النَّوْع تسكيتا لِلنَّصَارَى وَالْيَهُود وتأسيسا وَقدمنَا النَّوْع الثَّانِي بِنَاء وتأسيسا"**[2]

•الاحتجاج على النصارى بما جاء في كتبهم :

وقد أبان عن ذلك في صدر كتابه فقال:" **فأحكى مذاهبهم كَمَا دونوها فِي كتبهمْ وعَلى مَا تلقفوها من أساقفتهم ثمَّ أسبرها على محك الْعرض وَأبين بعض مَا فِيهَا من الْفساد والنقض**"([3])حيث إن مخاطبة النصارى بما في كتبهم أدعى لقبول الحق وألزم لهم ، وأقوم في ثبوت الحجة عليهم ، وحتى يتجنب كذب دعاويهم ومغالطتهم ثم إن ذلك جاء بناء على طلب المردود عليه ، ولذلك حشد القرطبي النصوص الكثيرة من العهدين القديم والجديد في ثنايا الرد كما في الكلام على الأقانيم الثلاثة ، وفي بيان بطلان مذاهبهم في الاتحاد والحلول ، وفي الكلام عن النبوات ، وغير ذلك .

•الاستدلال بالمعقول:

إذ إن الدلالات العقلية أحد أسس اليقين التي منحها الله للإنسان من أجل الوصول لعقيدة صحيحة ، وذلك لا المعقول الصريح لا يخالف المنقول الصحيح ، إذ الذي أنزل النقل هو من خلق العقل .([4])

يقول القرطبي:" **وَأما الشَّرْع فَالَّذِي دلّ عَلَيْهِ الْعقل جَاءَت بِهِ الشَّرَائِع**"([5])

---

١) – القواعد مفردها قاعدة، وهي في اللغة "الأساس، وكل ما يرتكز عليه الشيء فهو قاعدة، فالقواعد: أسس الشيء وأصوله حسيًا كان ذلك الشيء كقواعد البيت، أو معنويًا كقواعد الدين ودعائمه". المعجم الوسيط (٧٤٨/٢) ط. دار الدعوة.

٢)– الإعلام(٣٢٣) مرجع سابق

٣)– الإعلام (٤٦) مرجع سابق.

٤ – ألَّف الإمام ابن تيمية سِفراً ضخما في بيان هذه القضية ، وهو "درء تعارض العقل والنقل "، وقد حققه الدكتور محمد رشاد سالم في أحد عشر مجلداً ، وطبعته جامعة الإمام سعود.

٥ –الإعلام (١٥٤/١) مرجع سابق

يقول القرطبي في معرض رده **:" وَأما قَوْلك فِي جَوَاب سَائِلك عَن الاتحاد هَل حَادث أَو قديم حَيْثُ قلت إِنَّه قديم وحادث فَقَوْل لم يقل بِهِ مُؤمن وَلَا ناكث فَإِن الْجمع بَين الْقدَم والحدوث مِمَّا يعلم فَسَاده بضرورة الْعقل"**([1])

ومن الاستدلالات العقلية التي وظَّفها القرطبي ، كما وظفها أئمة المسلمين في جدالاتهم لأهل الكتاب ، وجعلها الدعامة الثانية لمنهجه بعد الدليل النقلي :

•الاستقراء •المعارضة •الاستدلال بالمسلمات عندهم • التحدي •المحال العقلي •السبر والتقسيم

ولاشك أن الاستدلالات العقلية من الأهمية بمكان في مجادلة أهل الكتاب إذ إنهم لا يعتقدون صحة القرآن الكريم ، وينكرون كونه وحياً من الله تعالى ، وقد يقرون بذلك لكن يقول باختصاص العرب به مما يجعل الأرضية المشتركة المقبولة من كلا الطرفين هي الأدلة العقلية وما ترتب عليها ، وهذا مما جعل القرطبي يكثر من الاستدلالات العقلية حتى إنه أحيانا ينقل من كتبهم المقدسة ومن أقوالهم ليبين مصادمتها للعقول الصريحة، ومن ذلك قوله بعد نقل قول المردود عليه :" وَلَكنَّا نقُول صَار الْحَادِث إِلَهًا وَلَا نقُول صَار الْإِلَه حَادِثا"(٢) يقول القرطبي:" وَكَيف لَا يستحي الْعَاقِل من مثل هَذَا الْكَلَام الَّذِي وَالله هُوَ عَار على الْأَنَام وَكَيف يتَصَوَّر أَن يعقل الإلهية لمحدث مَخْلُوق يحزن تَارَة ويفرح أُخْرَى ويجوع تَارَة ويشبع أُخْرَى ويتبول ويتغوط وتظفر بِهِ أعداؤه ويعذبونه بِالضَّرْبِ والإهانة والشوك والصلب وَالْقَتْل بزعمكم".

<u>**•تناول دين النصارى في مستويين :**</u>

أحدهما : الرد عليهم فيما حرفوه من دينهم ، فجعل الباب الأول والثاني والرابع في الكلام على الأقانيم والحلول والاتحاد، وفروع أحكامهم .

الثاني: إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ والرد على تكذيبهم به كما هو موضوع الباب الثالث.

<u>**•النقد الخارجي والداخلي للكتاب المقدس:**</u>

وقد وضع لبنة ذلك وأساسه وشَيَّد أركانه رائد الدراسات في حقل مقارنة الأديان الإمام ابن حزم في "الفصل"، وتبعه علماء المِلَّة ، ومنهم القرطبي في الإعلام ، فنراه يقول في ذلك :

" وَإِن أَبيت إِلَّا تماديا فِي غيك واستمراراً على جهلك وبغيك أريناك اختلال هَذِه الشُّرُوط عنْدكُمْ عيانًا وأقمنا على فَسَاد كتبك حجَّة وبرهانا وَذَلِكَ أَنا نقُول إِن من أعظم كتبكم الَّتِي ترجعون إِلَيْهَا وتعولون فِي أحكامكم عَلَيْهَا التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل وَكفى بهما شرفا وشهرة أَنَّهُمَا عنْدكُمْ كَلَام الْملك الْجَلِيل <u>وَأَنْتُم تدعون أَنكُمْ تناقلتموهما جيلا بعد جيل وَأَنا أبين إِن شَاءَ الله أَن نقلهما إِنَّمَا كَانَ بطرِيق الْآحَاد وَأَن الْغَلَط والسهو يجوز على ناقليهما وسآتي مِنْهُمَا ببُطْلَان المُرَاد.</u>

<u>أذكر إِن شَاءَ الله بعض مَا وَقع فيهمَا من التَّنَاقُض والتحريف وَالْقلب والتصحيف</u> وأنبه على قَبِيح مَا تنسبونه فيهمَا إِلَى الله من القَوْل السفساف السخيف وَمَا

---

١ – الإعلام ص(١٠٢/١) مرجع سابق

[2])-الإعلام (٩٧)

تنتقصون بِهِ الْأَنْبِيَاء أولى الْفضل والتشريف بحول الله تَعَالَى وَحسن عونه وأبدأ بِالتَّوْرَاةِ لكَونهَا مُقَدّمَة فِي الرُّتْبَة وَالزَّمَان ومعترفا بهَا عِنْد أولى الْأَدْيَان وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَان"(١) ،ثم عقد فصلا في بيان بعض ما طرأ في التوراة من الخلل وأنها لم تُنقل نقلا متواتراً لم تسلم لأجله من الخطأ والزلل.

•<u>بيان تحكيمهم للهوى ، وعدم رجوعهم لأصل واحد ولذلك تناقضوا:</u>

وقد عقد المصنف لذلك باباً كاملا هو الباب الرابع بيَّن فيه أنه لا مستند لهم في أحكامهم إلا محض الهوى ، فالنصارى ليسوا على شيء ، وقد خرجوا على تعاليم التوراة والإنجيل ، والتزم المصنف ذلك كقاعدة من قواعد نقده في كتابه ، ومن ذلك قوله رداً على قول بعضهم بنبوة مريم عليها السلام:" ثمَّ الَّذِي يفضى مِنْهُ الْعجب أَنكُمْ تعتقدون النُّبُوَّة لِمَرْيَم عَلَيْهَا السَّلَام وَلَيْسَ لنبوتها فِي التَّوْرَاة وَلَا فِي الْإِنْجِيل ذكر يدل على نبوتها وَلَا فِي كتب الْأَنْبِيَاء الْمُتَقَدّمين على زمَان الْمَسِيح ثمَّ تنكرون نبوة هَاجر وتذمونها مَعَ أَنه قد جَاءَت نبوتها ومدحها فِي التَّوْرَاة صَرِيحًا وَهَذَا كُله مِمَّا يدل على جهلكم وَقلة توفيقكم <u>وأنكم تتحكمون فِي الشَّرَائِع الإلهية بأوهامكم</u>"(٢)

---

(١)-الإعلام(١٨٦)مرجع سابق

(٢)- الإعلام (٢٣٤)

♦خصائص المنهج

نستطيع من خلال الوقوف على القواعد المنهجية عند القرطبي أن نستخلص كذلك الخصائص والسمات([1])التي تميز بها ذلك المنهج ، والتي سيتضح فيما بعد مدى تطبيقه ومراعاته لها، وهذه الخصائص هي:

•الأصولية

والمراد بها ذلك المنهج الذي وضعه علماء الإسلام في بناء مرجعيتهم وثقافتهم ، وصياغة أفكارهم ، وضبط قواعد التفكير والاستدلال ليكون سياجاً محافظا على الإسلام من الذوبان في التيارات الأجنبية عنه .

وقد كان ذلك بارزا في نقد الإمام القرطبي من أول الكتاب لآخره لا يعدل به شيئا ولا يقدم غيره عليه، وفي هذا يقول :" الاستدلال على نبوته صلى الله عَلَيْهِ وَسلم بِالْكتاب الْعَزِيز الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِل من بَين يَدَيْهِ وَلَا من خَلفه تَنْزِيل من حَكِيم حميد وَلَقَد كَانَ يَنْبَغِي أَن نقدم الاستدلال هَذَا النَّوْع لكَونه أعظم المعجزات وأوضحها وأشهرها لَكِن قدمنَا النَّوْع تسكيتا لِلنَّصَارَى وَالْيَهُود وتأسيسا وَقدمنَا النَّوْع الثَّانِي بِنَاء وتأسيسا"(٢)

ومن المواطن التي برزت فيها أصولية المؤلف في إخبار القرآن بالمغيبات وكذل كفي إثبات نبوة محمد ﷺ ([3])

•الموضوعية القائمة على علم واستقراء وعدل وإنصاف

ولا نعني بالموضوعية ما يُسمى بالحيادية في إبداء الرأي دون تأثر بخلفية دينية أو ثقافية أو اجتماعية، فهذا غير مستطاع خاصة خارج المنهج التجريبي القائم على الفحص والتجريب؛ وإنما هي إبداء الرأي استنادًا إلى قرائن ودلائل تملك من الصحة والشمول بما يكفي لتكوين رأي مناسب حول موضوع ما دون تعصب أو اختزال لدليل الخصوم أو التقليل من أهميته مع رفع شأن دليل المعارض وبيان قطعيته في الدلالة أو غير ذلك، مما ينافي آداب البحث والمناظرة والجدل في حقل مقارنة الأديان، والله تعالى يقول " وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً"، وتحقق الموضوعية لا يكون إلا بعد اكتمال أمور ثلاثة وهي:

- العلم قبل الدراسة
- شمول الاستقراء والبحث
- العدل والإنصاف في الحكم عقب الدراسة(٤)

---

١)– السمات مفرد سمة ومعناها العلامة، مأخوذة من الوسم أو السمو، والمقصود الخصائص والسمات التي تميز بها ذلك المنهج الذي تبناه، وقد نسميها بالخصائص، ومدارها كذلك على ما انفرد به الشخص وتميز به فصار علامة بارزة عليه، ومنه الخصيصة وهي الصفة التي تميز الشيء وتحدده. المعجم الوسيط (٢٣٨/١)، مرجع سابق.

[2])- الإعلام(٢٢٣)

[3])- الإعلام (٣٣٠)

[4])- منهج أهل السنة والجماعة في الرد على النصارى(١٧٤) مرجع سابق

وليس أدل على التزام الإمام القرطبي بالموضوعية من إقراره للحق الذي جاء به المردود عليه وقبوله منه ،فتراه يقول بعد أن نقل رد كبيرهم "أغشتين" على الفلاسفة :" فَهَذَا كَلَام هَذَا القس وَالنَّصَارَى يعترفون بِأَنَّهُ أعرفهم بدينهم وأعلمهم بشرعهم ويقينهم ينص على أَن الأقانيم الثَّلَاثَة صِفَات ونعوت للْوَاحِد الْفَرد وَلَا يُقَال فِيهَا أَنَّهَا هُوَ وَلَا هِيَ غَيره وَهُوَ لعمرى من المسددين فِي هَذَا النّظر إِذْ قد سلك مناهج الْبَحْث والعبر وَلَقَد قَارب الحنيفية وتباعد عَن الْملَّة النَّصْرَانِيَّة"(١)

•المجادلة بالتي هي أحسن الدائرة بين الترغيب والترهيب.

وذلك امتثالا لقول الله تعالى "ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ"، وهذا ما طبقه الإمام القرطبي ، وإن غلَّب جانب الترهيب على الترغيب في كثير من المواضع، فمن ذلك قوله وهو يخوف النصراني موقفه المخجل يوم القيامة :" فَذَلِك الْمقَام لَا ينفعك فِيهِ ملك مقرب وَلَا نبي مُرْسل إِلَّا مَا قدمت يداك من حسن إِيمَان وَصَالح عمل وسعادة قَضَت لَك بهَا سَابِقَة الْأَزَل فَإِن الْمَلَائِكَة والنبيين لَا يشفعون إِلَّا لمن ارتضى رب الْعَالمين. فَالله الله انْظُر فِي خلاص نَفسك لتجتني ثمار غرسك"(٢)

وأما الترغيب فمنه قوله بعد أن ذكر ما يدل على توحيد المسيح لربه واعترافه بكونه مربوباً خلافا لمعتقد النصارى :" فَالله يعلم أَنِّي أنظر إِلَيْك وَإِلَى كَافَّة خلق الله بِعَين الرَّحْمَة وأسأله هِدَايَة من ضل من هذه الْأمة وأتأسف على الأباطيل الَّتِي ينتحلون فَإِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون"(٣)،وهكذا جمع القرطبي بين الأسلوبين المدعومين بالحجة والبرهان لعل خصمه يرجع عن باطله.

• الأمانة العلمية .

فتراه ينقل مذاهبهم بألفاظهم من كتبهم دون زيادة أو نقصان شيء يبتره من النص مما قد يكون حجة عليه ، وفي هذا يقول في صدر الفصل الخامس في بيان اختلافهم في الأقانيم مبيناً منهجه :" نبين فِي هَذَا الْفَصْل مَذَاهِب أوائلهم ونتكلم مَعَهم فِيهَا ونوضح مسائلهم فِيهَا إِن شَاءَ الله تَعَالَى ونحكى مذاهبهم بألفاظهم كَمَا وَجدتهَا فِي كتبهمْ وَلم أعول فِي ذَلِك على نقل عُلَمَائِنَا عَنْهُم فَقَط بل تتبعت مَا أمكنني من كتبهمْ وَالله الْمُوفق"(٤) ولم يكن ذلك في موضع واحد ، بل في كل موضع ينقل من كتبهم لا يستطيع المردود عليه أن يتهمه بعدم التحري في النقل ، أو الخيانة العلمية بإخفاء جزء من النص ، وهذا يدل على أن القرطبي لم يكن يتبع طرقاً ملتوية لنصرة قوله ، وإنما هو طريق لاحب مستقيم خطَّه له الإسلام ليسير عليه.

• تأثره بالمنهج الأشعري

وليست هذه مجرد دعوى ، وإنما هي حقيقة نراها جلية في رد الإمام القرطبي على صاحب تثليث الوحدانية ،حيث إن المنهج الأشعري له أصوله وقواعده التي نستطيع من خلالها أن نحكم على منهج الشخص بأنه أشعري من عدمه ،وقد رأينا الإمام القرطبي في أكثر من موضع يميل إلى تأويل الصفات ، وعدم قبول أخبار

[1])- الإعلام(٨٣)، وانظر كذلك(١٠٢)
[2]-) الإعلام(١٢٣)
[3])-السابق(١٠١)
[4])- السابق (٧٩)

الآحاد في الاعتقاد ، والقول بالمجاز ، وهذه من قواعد المنهج الأشعري ، ثم إنه في شرحه على صحيح مسلم كثيراً ما يكتفي بذكر مذهب الأشاعرة في مقابل غيره من المذاهب ([1])، أو يذكر الخلاف في المذهب الأشعري نفسه(٢)

يقول القرطبي في الإعلام أثناء كلامه عن صفة كلام الله تعالى:" إن الله تَعَالَى مُتَكَلم بِكَلَام هُوَ وصف قَائِم بِذَات الله لَيْسَ بِحرف وَلَا صَوت"(٣)، ويقول :" الْكَلَام الَّذِي سَمعه مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام هُوَ كَلَام الله الْقَدِيم الْقَائِم بِذَات الله الَّذِي لَيْسَ بِحرف وَلَا صَوت"

ويقول في شرحه على صحيح مسلم :" فإنَّ كلامه تعالى ليس بحرف، ولا صوت، كما هو مبرهن عليه في موضعه، فإنَّ أراد هذا القائل: أن كلام الله تعالى القائم به صوت يُسمع بحاسة الأذن، فهو غلط فاحش، وما هذا اعتقاد أهل الحق" (٤)

ومن ذلك كلامه عن رؤية الله تعالى في الآخرة حيث يقرر أن الله يخلق لعباده المؤمنين إدراكا آخر يدركون به ربهم، وهذا كلام الأشعرية ومعتقدهم .([5])

ولاشك أن لهذا المنهج أثراً في الرد ،إذ إنه قد يفتح مجالا للتأويل غير السائغ عند المردود عليه ، إذ إنه يستطيع أن يقول :لِم أجزتم لأنفسكم معاشر المسلمين هذه التأويلات ولم تمرروها لنا؟ ! فكل ما سبق يدل على أشعرية القرطبي رحمه الله .

•الاستدلال بالأشعار والأمثال السائرة وفنون البلاغة العربية

فجعل القرطبي ذلك معضدا للأصول السابقة وبرع في الاستدلال به وتنويعه لبيان صحة دين الإسلام ، وبطلان ما يخالفه ، فتراه يورد على المسألة الواحدة ، بل في الصفحة الواحدة الأشعار والأمثال والأساليب البلاغية ، **إلا أن الذي يُعاب عليه كثرة السخرية والتهكم والتجهيل** في رده مما قد يحمل المردود عليه على النُّفرة من قبول الحق ، ومن ذلك قوله:" فأمعنت النّظر فِيهِ فَإِذا بالمتكلم يهرف بِمَا لَا يعرف وينطق بِمَا لَا يُحَقّق نَاقض وَلم يشْعر وعمى من حَيْثُ يظنّ أَنه يستبصر {أم تحسب أَن أَكْثَرهم يسمعُونَ أَو يعْقلُونَ إِن هم إِلَّا كالأنعام بل هم أضلّ} يلحن إِذا كتب ويعجم مَتى أعرب ... وَذي خطل فِي القَوْل تحسب أَنه مُصِيب فَمَا يلم بِهِ فَهُوَ قَائِله ... دلّ بقوله على ضعف عقله وبمكاتبته على سوء محاولته تعاطى دَرَجَة النظار وسود بأباطيله ذَلِك الطومار ليستزل بِهِ الأغبياء."([6])

وأما الاستدلال بالشعر وأمثال العرب ، فيورد قول الشاعر:

خلِّي الطريق لمن يبني المنار به .... واقعد ببرزةَ حين اضطرك القدر

ليدلل على جهل المثلِّث وعدم معرفته بطريق النظر ، ثم يورد المثل العربي : أطرف من العنقاء ليدلل على أن قوله لا يشهد له عقل ولا نقل .(٧)

---

[1])- كما في الكلام عمن شك في علم الله وقدرته مع جهله ، هل يكفر أم لا . المفهم في شرح صحيح مسلم(٧٥/٧) مرجع سابق

[2])-كما في الكلام عن توقيفية أسماء الله . المفهم (٥٧٦/٦) مرجع سابق

[3])- الإعلام (١٠٨) مرجع سابق

[4])- المفهم (١٧١/١) كتاب الإيمان .باب : كيف يأتيه الوحي؟

[5])- الإعلام (١٢٤)

[6])- الإعلام (٤٣/١)

٧ –السابق (٥٩)

الفصل الثاني

دراسة الإمام القرطبي للنصرانية

"الجانب التطبيقي"

لقد مزج الإمام القرطبي في بيان فساد دين النصارى بين الدليل النقلي والبرهان العقلي وسطَّر ذلك بأسلوب بلاغي بديع وإن لم يخل من التهكم والسخرية ، ففي الفصل الثاني الذي جعله بعنوان : **أقانيم القدرة والعلم والحياة** نقل كلام المَثلَّث في بيان مذهبه في الأقانيم الثلاثة ثم أعقب ذلك بالرد بأسلوب بلاغي فيه نوع تجهيل وسخرية حيث قال :

" اعْلَم يَا هَذَا إِنَّك لم تحسن السُّؤَال وَلَا حصلت مِنْهُ على صَوَاب مقَال بل حصل مِنْهُ فِي عُنُقك غل وَفِي رجليك عقال قلبت السُّؤَال وَلم تشعر وجهلت من حَيْثُ ظَنَنْت أَنَّك تستبصر اردت أَن تَقول فِي الاعتراض الَّذِي وجهته على نَفسك لم لَا تكتفون باسم الْقَادِر الْعَالم المريد وَلَا تَقولُونَ باسم الآب والابن وروح الْقُدس فَقدمت وأخرت وباللفظ وَالْمعْنَى أخللت ثمَّ أنتجت النتيجة قبل ذكر الْمُقدمَات فَصَارَ لذَلِك كلامك من أرك الترهات"(١) وهذه السخرية قد تصده عن قبول الحق .

أعقب القرطبي ذلك بالرد على ما ظنه المثلث دليلا على اعتقاد وجوب الآب والابن والرح القدس مستدلا بما قاله المسيح "من آمن مِنْهُم فعمدوه على اسْم الآب والابن وَالروح الْقُدس"(٢) فبين أنه لا حجة فيه ، إذ ليس بنص قاطع يُعتمد عليه في ثبيت وجوب ذلك ، بل هو من المتشابه ، ثم استدل بالقرآن على أن هذا النص له تأويل صحيح ، وذلك أن عيسى عليه السلام كان يطلق لفظ الآب على الله أي : إنه ذو حفظ له وذو رحمة وحنان عليه ، وعلى عباده الصالحين ، فهو لهم بمنزلة الأب ، وهم له في القيام بحقوقه وعبادته بمنزلة الولد البار ، أو أطلق ذلك وأراد بالأب المعلم ثم دلل على ذلك بقوله تعالى :" مِلَّة أبيكم إِبْرَاهِيم هُوَ سَمَّاكُم الْمُسلمين من قبل" ثم بعد أن ذكر فقرات من الإنجيل تؤيد ذلك قال: فهذا يدل دلالة بينة على أن المسيح كان يطلق لفظ الآب على الله بالمعنى الذي يطلق على إبراهيم عليه السلام ، أي : المعلم الشفيق ، وبهذا المعنى تقول اليهود والنصارى في إبراهيم ، وليس حقيقة الأبوة ، ومع ذلك :" مَا كَانَ إِبْرَاهِيم يَهُودِيّا وَلَا نَصْرَانِيّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفا مُسلما وَمَا كَانَ من الْمُشْركين"(٣)فاستخدم القرطبي رحمه الله هنا الدليل نقلي في رد ما اشتبه من كلامهم .

وأما البرهان العقلي في الجواب فجاء في بيان امتناع القول بالجمع بين الحقيقة والمجاز في هذه المسألة للافتقار للجامع بينهما ، ثم استخدم السبر والتقسيم والحصر والإبطال في بيان أنهم :إما أن يكونوا قاطعين بهذا الـأمر ولا يصح لهم ذلك لفقدان النص القطعي ، وإن زعموا أنهم غير قاطعين فقد اعترفوا بأنهم شاكون في اعتقادهم وقد كفونا مؤنة الكلام معهم ، لأنهم بنوا اعتقادهم على الشك !

---

[١])- الإعلام (٦٣)

[٢])- متى ١٩: ٢٨

[٣])- الإعلام (٦٤)

ويلزمهم كذلك- على التسليم بهذا الجامع الذي أبدعوه -أن يكون الباري أباً لكل المخلوقات –تعالى ربنا وتقدس عن ذلك- إذ هو محدث كل المخلوقات**!**([1])

مثال تطبيقي آخر في : إبطال عقيدة الحلول والاتحاد

وقد قام رده على ثلاثة محاور رئيسية:

- محور شرعي
- ومحور عقلي
- ومناقشة أدلتهم في الحلول والرد عليها

أما المحور الشرعي فقد دلل القرطبي على مفارقة ذات الرب وصفاته لذات العبد وصفاته بقوله تعالى "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" فيذكر الآية لينزه الله تعالى عن كل عيب ونقص ، وليبين علو شأنه فوق كل الموجودات.[2]فكيف يحل في المخلوق ويتحد به؟!([3])

وأما المحور العقلي فقد استخدم القرطبي **السبر والتقسيم** في بيان بطلان هذه العقيدة القائلة بأن الكلمة خالطت جسم المسيح ومازجته كما يمازج الخمر اللبن ، فقال:

" ثمَّ نقُول لَهُم بعد ذَلِك فِي قَوْلهم بالاختلاط وبأنهما صَارا شَيْئا وَاحِدًا لَا خلو أَن حِين اختلطا أما أَن يبْقى الْعلم مَوْجُودا بِحَالهِ والجوهر مَوْجُودا بِحَالهِ أم يَنْعَدِم أَحدهمَا أَو ينعدما مَعًا. محَال أَن يبقيا موجودين بحاليهما مَعَ فرض الاختلاط وكونهما شَيْئا وَاحِدًا فَإِن الْوَاحِد

لَا يعود اثنين إِلَّا بِإِضَافَة غَيره إِلَيْهِ وَإِذا أضيف غَيره إِلَيْهِ ارْتَفَعت الْوحدَة بِالضَّرُورَةِ على مَا تقدم فِي التَّثْلِيث وَكَذَلِكَ الاثنان لَا يعودان وَاحِدًا إِلَّا إِذا انْعَدم أَحدهمَا فترتفع الأنثينية بِالضَّرُورَةِ ومحال أَن ينعدما فَإِنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى عدم الْقَدِيم وَإِلَى عدم مَا هُوَ مَوْجُود فِي حَالَة وجوده فَلم يبْق إِلَّا أَن يَنْعَدِم أَحدهمَا دون الآخر وَذَلِكَ محَال فَإِن الْمَوْجُود لَا يخالط الْمَعْدُوم وَلَا يمازجه بل يبْقى الْوَاحِد وَاحِدًا.

وَإِذا بطلت هَذِه الْأَقْسَام المنحصرة بَطل الامتزاج والاختلاط ومصير الاثنين وَاحِدًا على مَا قَالُوهُ" (٤)ا .هـ

فأثبت أن جميع الاحتمالات التي قامت عليها فكرة الحلول والاتحاد باطلة، وبناء على لك تبطل عقيدتهم.

وقد ناقش كذلك أدلتهم التي استدل بها صاحب تثليث الوحدانية سواء كانت استدلالاته من القرآن الكريم ، أو من كتابهم المقدس ورد عليها وفندها فتوافقت قواعد المنهج النظري مع تطبيقاته المنهجية.

---

[1])- الإعلام(٦٨)

٢) –الإعلام (١٠٧) مرجع سابق

[3])- السابق (١٠٧)

٤ – الإعلام(١/١٣٠) مرجع سابق

خاتمة البحث ونتائجه

لا شك أن النبي -ﷺ -دعا أهل الأرض قاطبة إلى الإسلام ، وسار في ذلك على وفق المنهج الذي بينه له ربنا تبارك وتعالى ، ثم سار على نهجه العلماء ورثة الأنبياء ، فأبلغوا الدين وأوصلوه إلى الخلق ، وردوا ما يخالفه من الملل الباطلة ، وكان من هؤلاء الإمام القرطبي رحمه الله الذي بذل جهداً طيبا في تجلية حقيقة الإسلام ورسوله ﷺ.

لقد انتهى هذا البحث إلى مجموعة من النتائج وهي:

▪ دور الرد على أهل الملل المنحرفة في بيان حقيقة الإسلام ومحاسنه ، إذ إنه بالمقارنة يتضح إلهية هذا الدين وصدق رسوله ﷺ لكل منصف باحث عن الحق.

▪تنوع قواعد المنهج النقدي المستخدمة في الرد له اثر كبير في إظهار الحق ،فمن لم يقبل بالنقل ، أرغمه البرهان العقلي الصحيح على الإقرار بالحق ولو لم ينطق به.

▪ اعتماد العالم في رده على المصادر الأصلية للمردود عليه دون النقل عمن رد عليه له أبلغ الأثر في توثيق الأقوال بشكل صحيح.

▪كان الإمام القرطبي صاحب منهج مميز في الرد جمع فيه بين المنقول والمعقول والترغيب والترهيب ، وكان على دراية تامة بعقيدة المردود .

▪كتاب الإعلام من الكتب التي لم تلق اهتماماً من جهة إبراز أهميته في حقل مقارنة الأديان ، التحقيق ، وتوثيق الأقوال إلى قائليها فالنسخة المعتمدة تحقيق الدكتور حجازي ، وتحقيقها يحتاج لتحقيق !

وختاماً، فهذا جهد المُقل ، فما كان من توفيق فمن الله تعالى وحده الذي جعل أستاذي الدكتور عبد الراضي سبباً في تنوير القلوب قبل العيون في هذا المجال وغيره ، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان ، والحمد لله أولاً وآخراً.

المصادر والمراجع

١-أبجديات المنطق ومناهج البحث د. عبد الراضي محمد عبد المحسن ط. دار الثقافة العربية، ٢٠١٤م
٢-أسلوب الإمامين القرطبي والقرافي في دعوة النصارى إلى الإسلام (دراسة مقارنة). رسالة دكتوراه للباحث بيسان صالح حسن .جامعة الإمام محمد بن سعود ١٤٢٠-١٤٢١هـ
٣-الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام. أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي ط. دار التراث العربي .تحقيق د. أحمد حجازي السقا، بدون تاريخ.
٤-الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح . أحمد بن عبد الحليم بن تيمية .ط. دار العاصمة.
٥-الفصل في الملل والنحل .أبو محمد على بن أحمد بن حزم : ط. دار الحديث. القاهرة ط. الأولى ١٤١٣هـ
٦-قواعد ابن تيمية في الرد على المخالفين: رسالة ماجستير لحمد بن حميد القريقري ،ط. دار الفضيلة. الرياض ١٤٣٢هـ
٧-المُفهِم شرح صحيح مسلم . أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي. ط. دار ابن كثير. دمشق
٩-مناهج دراسة الأديان بين المتكلمين والفلاسفة المسلمين في القرنين الرابع والخامس الهجريين . حمدي عبد الله الشرقاوي. رسالة دكتوراه . دار العلوم .القاهرة.١٤٢٠هـ/١٩٩٩م
١٠-منهج أهل السُّنة والجماعة في الردِّ على النصارى "دراسة علمية من خلال جهود الإمام ابن تيمية " رسالة ماجستير د. عبد الراضي محمد عبد المحسن ، ط. دار الفاروق الحديثة . القاهرة الطبعة الثانية ١٤١٥هـ
١١-هداية الحيارى . شمس الدين أبو بكر محمد بن قيم الجوزية .ط. عالم الفوائد . مكة المكرمة . تحقيق عثمان جمعة ضميرية.